قصة آية

34

وتلك الأيام نداولها بين الناس

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى

طبع ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

وتلك الأيام نداولها بين الناس

قَالَ (تعالى) :

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ
وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

[سورة آل عمران : ١٣٩ ، ١٤٠]

الخطابُ من اللّه للمسلمين ، والمُنَاسَبَةُ بعْدَ هَزِيمَةِ أُحُدٍ وما لابسَ ذلكَ من أحْداثٍ ، كادتْ تَفْتِنُ المُسْلمينَ في دِينِهِمْ ، وجعلَتْهم يرْتَدُونَ ثِيابَ الحُزْنِ والهَمِّ لفَتْرَةٍ طَويلةٍ .

فبعْدَ أنِ انْتَصَرَ المُشْرِكونَ على المُسْلمينَ

فى غَزْوَةِ أُحُدٍ ، راحُوا يَحْتَفلون بانْتصارِهِمْ فى ساحَةِ الْمَعْرَكَةِ ، فارْتَفعتْ زَغاريدُ النِّساءِ ، وعلَتْ قَهْقَهاتُ الرِّجالِ ، وقالَ الْمشركون فى نَشْوَةٍ وزَهْوٍ :

ـ يَوْمٌ بيَوْمِ بَدْرٍ ، والْحَرْبُ سِجَالٌ .

لكنَّ مَنْطقَ الْمسلمينَ كانَ مُخْتَلفًا ، حيْثُ ردُّوا على الْمُشركينَ بقَوْلِهِمْ :

ـ لا سَواء ، قَتْلانَا فى الْجنَّةِ وقَتْلاكُمْ فى النَّارِ .

ورأى خالدُ بْنُ الْوَليدِ ـ الذى كانَ مُشْركًا فى ذاكَ الْوَقْتِ ـ رأى الْفُرصَةَ سانِحَةً ، فأَرادَ أَنْ يَصْعَدَ جَبَلَ أُحُدٍ وقال :

ـ يجبُ أَنْ نَعْلُوَ على الْمُسْلمين ونصْعَدَ الْجبلَ

حتى نُرْغِم أُنُوفَهُم ويَعْلَموا أَنَّ الْعِزَّةَ لِقُرَيْش .

وأَضافَ فى زَهْوٍ :

ـ يجبُ أَنْ يعلَمَ محمدٌ وأَصْحابُه أَنَّنا أَعْلَى مَكانَةً ومَنْزِلَةً منهم .

وسَمِعَ الْمُسْلمون كَلامَ خالِد بْنِ الْوَلِيد ، فأَصابَهُمُ الْحُزْنُ والْهَمُّ وتأَثَّروا لذلِكَ وقالوا :

ـ كيفَ تَعْلُو رايَةُ الشِّرْكِ وتَرْتَفِعُ رايَةُ الْوَثَنِيَّةِ ، بيْنَما يُصيبُنا نحنُ الْمُسْلمينَ ـ ونَحْنُ عَلَى الْحَقِّ ـ ما أَصابَنا ؟!

وذهبَ هؤُلاءِ الصَّحابَةُ إلى رسول اللّه ﷺ وهمْ يَبْكُونَ وقالوا :

ـ يا رَسولَ اللّه ، إنَّ خالِدَ بنَ الْوَلِيدِ أَقْبَلَ

بخيله يريدُ أنْ يعْلو علَيْنا ويصعَدَ الجَبلَ .

فرفَعَ النبيُّ ﷺ يديْه إلى السَّماءِ ودعَا ربَّهُ فى خُشُوعٍ وقال :

ـ اللهمَّ لا يَعلُنَّ علَينا ، اللهم لا قُوَّةَ لنا إلا بكَ ، اللهمَّ ليْس يَعْبُدُكَ بهذهِ الْبَلْدَةِ غيْرُ هؤُلاءِ النَّفَرِ .

فأَنْزلَ اللَّهُ (تعالَى) قولَه :

﴿ ولاَ تَهِنُوا ولاَ تحزَنُوا وأَنْتُم الأَعلَوْنَ إنْ كُنتُمْ مُؤْمنين ﴾

ومكَّنَ اللَّهُ جماعَةً منَ الْمسلمينَ فصَعدُوا الْجبَلَ وأَخذُوا يرمُونَ خالدَ بْنَ الْوَليدِ وجُنُودَه بسِهامِهِمْ حتى فرَّقوهُمْ

ولمْ يُمكِّنوهُم منْ صُعُودِ الجبَلِ ، ولمْ يتحقَّقْ لهمْ ما أرادوا .

وفى الآيةِ الكريمةِ يُعَزِّى اللهُ المؤمنينَ ويُخفِّفُ عنهُمْ ما نالهم من قَتْلٍ وجراحٍ يوم أُحُد ، ويحُثُّهُم على قتالِ عدُوِّهِمْ وينهاهُم عَنِ العجزِ والفشلِ ، فقالَ «ولا تهِنُوا» ، أىْ لا تَضْعُفُوا يا أصْحابَ محمد ، ولا تجْبُنُوا عَنْ جهادِ أعْدائِكُمْ بسببِ ما أصابكُمْ .

«ولا تحْزَنوا» بسببِ ظُهورِ المشركينَ عليكُمْ ، «وأنْتُمُ الأعْلَوْنَ» وستكونُ العاقبةُ لكم بالنَّصْرِ والظَّفَرِ عليهم «إنْ كُنتُمْ مُؤمنينَ» بحقٍّ وصِدقٍ وليسَ باللِّسانِ ومُجرَّدِ الكَلامِ .

وقالَ العُلَماءُ في قولِهِ (تعالَى) : «وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ» :

ـ وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ ، يعنِى : الْغَالِبِينَ على الأَعْداءِ بعْدَ أُحُدٍ . فلَمْ يخْرُجِ الْمسلمونَ فى غَزْوَةٍ بعْدَ أُحُدٍ معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ إلا وانْتَصَرَ فيها الْمُسْلمونَ على أَعْدائِهِمْ .

وقالَ الإمامُ القُرْطُبِيُّ :

ـ فى هذهِ الآيةِ بَيَانُ فَضْلِ هذهِ الأُمَّةِ ، لأَنَّ اللَّهَ (تعالَى) خاطَبَهُمْ بما خاطَبَ به أَنْبِيَاءَهُ ، فقالَ (تعالَى) لِموُسَى عليه السلام : «إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى» [طه : ٦٨] .

وقالَ لِهذهِ الأُمَّةِ : «وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ» ، وهذهِ

اللَّفْظَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ اسْمِهِ الأعْلَى فَهُوَ (سُبْحانَهُ الْعَلِيُّ)، وقالَ لِلمؤْمنينَ «وأَنْتُمُ الأعْلَوْنَ».

وبَعْدَ انْتِهاءِ الْمَعْرَكَةِ، جالَ الرَّسولُ ﷺ فى ساحَةِ المعْرَكَةِ لِيَتَفَقَّدَ الشُّهَداءَ، فتأَثَّرَ ﷺ لِمَنْظَرِ هؤُلاءِ الشُّهَداءِ، وما حَدَثَ لَهُمْ، حيْثُ مَثَّلَ الكُفَّارُ بالقَتْلى مِنَ المُسْلمينَ فشوَّهوا أَجسادَهُمْ وقَطَعُوا آذانَهُمْ وأَيْدِيَهُمْ.

وتأَثَّرَ الرسولُ ﷺ أَكْثَرَ عِنْدَما جاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْمُسْلمينَ بِزَوْجِها وابْنِها مَقْتُولَيْنِ وهىَ تَبْكِى وتَقولُ:

- قُتِلَ زَوْجِى وابْنِى يا رسولَ اللَّهِ، ولَمْ يَبْقَ لِى أَحَدٌ.

وراحتْ تذرِفُ الدَّمعَ بغزارةٍ وهى تقول :

ـ إنّا للّه وإنّا إليْه راجِعُون ، حَسْبُنا اللّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ .

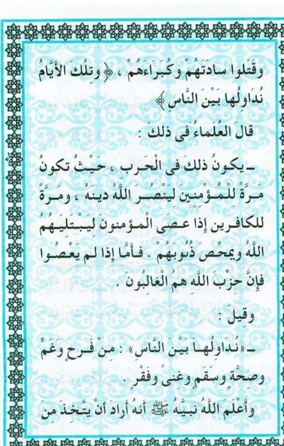
وقالَ الرسولُ ﷺ فى تأثُّرٍ :

ـ أَهكذا يُفعَلُ برَسُولِك ؟

فأنْزَلَ اللّهُ (تعالَى) قوْلَهُ :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

فذكَّرَ اللّهُ نبيَّهُ ﷺ والمُسْلمين ، بأنهمْ إنْ كَانوا قدْ هُزِمُوا فى غَزْوَةِ أُحُدٍ ، فقَدْ سَبقَ لهُمْ أنْ هَزمُوا المشْرِكينَ فى بَدْرٍ ،



وقتلوا سادَتَهُمْ وكُبراءَهُمْ ، ﴿ وتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ النَّاسِ ﴾

قالَ العُلَماءُ في ذلكَ :

ـ يكونُ ذلكَ في الحَرب ، حَيْثُ تكونُ مَرَّةً للمُؤْمنِينَ لِيَنصُرَ اللَّهُ دِينَهُ ، ومَرَّةً للكافرين إذا عصَى المؤمنونَ لِيَبْتَلِيَهُمُ اللَّهُ ويمحصَ ذُنُوبَهُمْ . فأمَّا إذا لم يَعْصُوا فإنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ .

وقِيلَ :

ـ « نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » : مِنْ فَرحٍ وغَمٍّ وصِحَّةٍ وسَقَمٍ وغِنىً وفَقْرٍ .

وأعْلَمَ اللَّهُ نبيَّهُ ﷺ أنهُ أرادَ أنْ يتَّخِذَ مِنَ



الْمُؤْمنينَ شُهَدَاءَ ويُكْرِمَهُمْ بالشَّهادَةِ لأَنَّ مكانَةَ الشَّهيدِ لا تُدانيها مَكانَةٌ .

فذَاتَ يوم أَخْبَرَ الرَّسولُ ﷺ أَصْحابَهُ أَنَّ الشَّهيدَ لا يُفْتَنُ في قَبْرِه .

فجاءَ رجلٌ إِلى رسولِ اللّه ﷺ وسأَلَهُ :

ـ يا رسولَ اللّه ، ما بَالُ الْمؤمنينَ يُفْتَنُونَ في قُبُورِهِمْ إِلاَّ الشَّهيدَ ؟

فقال ﷺ :

ـ كَفَى ببارِقَةِ السُّيُوفِ على رأْسِه فِتْنَةً .

وإذا كانَ المسلمونَ قد قُتِلَ منْهُمْ سَبْعُونَ رجُلاً في غزْوَةِ أُحُد ، فإِن هذا لا يَعْني أَنَّ اللَّهَ (تعالى) قد تخَلَّى عَنْهُمْ ، ولَكِنَّها

كانتْ محْنَةً أوْقعَ فيها المسلمونَ أنْفُسَهُمْ بعصْيانِهِمْ أمْرَ الرَّسُولِ ﷺ ، كما كانَتْ ابْتلاءً منَ اللَّه وتمْحيصًا لهمْ ليُعْرفَ الصَّادقُ منَ الْكَاذبِ .

فإنَّ المسلمينَ بعْد غزْوة بدْرٍ كانَ فى أيْديهمْ أسْرَى للْمشركينَ عددُهُمْ سبْعُونَ ، وكانَ منَ الْمُفتَرضِ أنْ يُقتَلَ هؤُلاءِ الأسْرَى لأنَّهمْ خرجُوا يقاتلونَ رسولَ اللَّه ﷺ ، ويَصُدُّونَ عنْ سَبيلِ اللَّه ، ويبْغُونَ قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ ، ولكنَّ الْمُسلمينَ لمْ يقْتلُوهُمْ وأطْلقُوا سرَاحَهُمْ ، وعاتبَ اللَّهُ نبيَّهُ ﷺ فى ذلك .

رُوِىَ عَنْ عَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال :

ـ جاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام إلى النَّبِىِّ ﷺ يومَ بَدْرٍ ، فقالَ لهُ :

ـ خَيِّرْ أَصْحابَكَ فى الأُسَارَى ، إنْ شَاءُوا الْقَتْلَ ، وإنْ شَاءُوا الْفِدَاءَ ، عَلَى أَنْ يُقْتَلَ مِنهُمْ عامَ الْمُقْبِلِ مِثْلُهُم .

فقالَ المسلمونَ :

ـ الْفِداءُ ويُقْتَلُ مِنَّا !

فقَبِلَ الْمُسلِمونَ أَنْ يُطْلِقُوا سَراحَ الأَسْرَى الْمُشْرِكينَ بِرَغْمِ عاقِبَةِ ذلكَ عَلَيْهِمْ .

ولعَلَّ أَهَمَّ ما يُسْتَفادُ مِنَ الآياتِ الكَرِيمَةِ

هو ألا ييْئَس المسلم من نصر اللَّه ، مهما كانَت الظُّروفُ .

فالأُمَةُ الإسْلامِيَّةُ الْيوم كما نرَى ، ضَعِيفَةٌ مُشَتَّتَةٌ ، ليْسَ لها أىُّ دوْرٍ رِيادِىٍّ على مُستوَى الْعالم ، وهى تتعرَّض من وَقْتٍ لآخَرَ لاعْتداءات وحْشِيَّةٍ وهزائم عَسْكرِية ، ويمكِنُ أنْ نسْتَدِلَّ على ذلك بما حدث فى الْبُوسْنَةِ وكُوسُوفَا والْجُمهوريات الإسْلامِيَّة التى كانَت خاضِعَةً لحكْمِ الاتحاد السُّوفِيْتِىِّ وغيْرِها .

وبرغْمِ ذلك فإنَّ المسلمينَ لا يَجبُ أنْ ييْئَسُوا منْ نصْرِ اللَّه لهم ، وتمكِينه لعِبادِه الْمُسلمينَ فى الأرْضِ .

وقدْ يَبْدُو هذا الأملُ بَعيدَ المَنالِ صعْبَ التَّحْقيقِ أوْ مُسْتَحِيلَ التَّحقُّقِ فى نَظرِ الْكَثيرِ ، لكنَّ الْمسلمَ الذى يتأمَّلُ سُنَنَ اللَّهِ فى خَلْقِـهِ ويَقْـرأُ أَحْـداثَ التَّـاريخِ لا يسْتَغْربُ ذلكَ ولا يَنْدهِشُ ولا يسْتَبْعِدُ أنْ يعُـودَ للْمُـسلمينَ مَجْـدُهُمْ وعِـزُّهمْ ﴿ وتلكَ الأيَّامُ نُداوِلُها بيْنَ النَّاسِ ﴾ .

لَكنْ لا يَنبَغى أنْ نَحلُمَ بما لا نَقْدرُ على تَحْقيقه ونحنُ فى هذا الْحالِ ، فلكَىْ يعودَ للإسْلامِ مَجْدُهُ وعِزُّه ، هُناكَ شُرُوطٌ يجبُ أنْ يلْتَزِمَ الْمُسلِمُونَ بهـا كَىْ يتحقَّقَ لهم ما يرِيدُونَ .



ويُمْكنُ تلْخيصُ ذلك كُلِّه في شَيْئَيْن :
التَّمَسُّك بكتَاب اللَّه وسُنَّة نَبيِّه ﷺ قوْلاً
وفعْلاً وسُلُوكًا وأَخْلاقًا ، وأَنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ
ما بقومٍ حتى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ .

رقم الإيداع ١٦١٢٦/ ٢٠٠١
الترقيم الدولى : ٢ ـ ٧٠٠ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧